الدرس الثالث و الأربعون

فوائد مستفادة من سورة الإنسان [٢]

الفائدة الثالثة والثلاثون: وهي بطلان مقالة: ما عبدتك طمعا في جنتك ولا خوف من نارك ولكن محبة لك. هذه الجملة ينسبها بعض الصوفية إلى رابعة العدوية أو بعض الصالحين بل يجب أن نعبد الله بالحب والخوف والرجاء وأن لا نهون من قيمة هذه الأشياء التي علقنا الله تعالى وأغرانا بها.

فمن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري خارجي ، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن الموحد قال تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ)[سورة الإسراء:٥٧].

فعليك أيُها المؤمن أن تحذر من هذه المقولات المحدثة ، التي ليس لها أصل من كلام رب العالمين ، ولا من كلام سيد المرسلين ، ولا من كلام الصحابة والتابعين ؛وإنما صدرت عن قوم جاهلين ، أو نسبت إلى قوم صالحين، فيجب علينا أن نعتمد ما دل عليه القرآن والسنة ، فنعبد الله طمعًا في جنته، وخوفًا من ناره ، وحبًّا فيه ، فهذه الثلاث الحب ،والخوف ،والرجاء أمهات العبادات القلبية .

الفائدة الرابعة والثلاثون: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الخامسة والثلاثون: أن الله تعالى متفضل شكور.

قال الله عز وجل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا)[سورة الإنسان:٢٣].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

(نحن) هنا يسمى ضمير فصل، وضمير الفصل يكثر وروده في القرآن وله ثلاث فوائد، أحدها :التأكيد ، فلو قلت زيد أخوك، لاستقام المعنى؛ لكن لو قلت زيد هو أخوك لكان في ذلك مزيد تأكيد .

الفائدة الثانية: الحصر لأنها تدل اختصاص ما قبله بما بعده، كقولك: المجتهد هو الناجح، فاختص به.

والفائدة الثالثة : الفصل ولهذا يسمى ضمير فصل، يفيد التمييز بين كون ما بعده خبرًا أو تابعًا فلو قلت مثلا: زيد الفاضل فقد يشتبه على السامع هل المقصود بالفاضل صفة لزيد ولما يأتي الخبر أم هو خبر له ، لكن إذا قلت زيد هو الفاضل فإنه يدل على أنه خبر[1].

قوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا): هذا امتنان من الله تعالى على نبيه وذلك أن القرآن يتضمن العقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة والآداب الرفيعة. وفي قوله (تنزيلا) ما يدل على أن القرآن ينزل شيئا فشيئا، كما دل عليه قوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)[سورة الفرقان:٣٢] ، وقوله: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا)[سورة الإسراء:١٠٦]. فالله تعالى جعل القرآن منجّمًا ينزل بحسب الحوادث والأحوال .

قوله: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)، الإيمان بالقرآن يتطلب صبرًا ، صبرًا على طاعة

(١) انظر أصول في التفسير لشيخنا محمد بن صالح العثيمين (٥٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الله ، وصبرًا عن معصية الله ، وصبرًا على أقدار الله المؤلمة ، وهذه أنواع الصبر الثلاثة كما تقدم مرارا .

وحكم الرب يشمل: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، فالحكم الكوني القدري : هو ما يقضيه الله تعالى ويقدره في خلقه من الأرزاق والآجال والمصائب والآفات والعز والذل والصحة والمرض والحياة والموت .

والحكم الشرعي: هو ما يحكم به من الحلال والحرام والحل والإباحة وغير ذلك .

فيجب الصبر لكلا الحكمين: الحكم الكوني بالرضى والتسليم ، والحكم الشرعي كذلك بالأنقياد والقبول. قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

قال تعالى: (وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) [سورة الإنسان:٢٤]: نهى الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين من بعده عن طاعة هذين الصنفين الآثم: المتلبس بالإثم ، وهو الفسق والفجور ، والكفور: الجاحد لله تعالى المنكر لما جاء به أنبياؤه، فهذا تحذير من الله لنبيه من طرائق المنافقين والكافرين والعصاة والفاسقين، ثم دله على ما يعينه على الصبر على حكم الله ، والعمل به ..

فقال تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [سورة الإنسان:٢٥]: فذكر الله تعالى غذاء القلب والروح. والغافل أضعف الناس أمام شهواته ، وأما الذاكر فإن الله تعالى يهبه قوة في قلبه وروحه ونفسه تعصمه عن الوقوع في المحرمات ،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وتحمله على فعل الطاعات.

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ، وفي هذا تنبيه على الصلوات ؛ لأن الذي فيه ذكر اسم الله بكرة واصيلًا هي: الصلوات، لا سيما صلاتي الصبح والعصر ؛لأنهما يقعان في البكرة والأصيل. والبكرة: هي الغدو، والأصيل هو العشي، ووسع بعض العلماء ومنهم السيوطي: البكرة تتناول صلاة الصبح والظهر، والأصيل لتتناول صلوات المساء؛ العصر والمغرب والعشاء.

ذكر الله تعالى نوعان: ذكر مطلق، وذكر مقيد.

فالذكر المطلق: أن يلهج الانسان دومًا بذكر الله تعالى ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم-: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى)[٢] وكما قال ربنا: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) .

أما الذكر المقيد: فهو ما قُيِّدَ بأوقات ،وأحوال ،وهيئات ،وأسباب معينة، فهناك ذكر لله في الصلوات كما أشرنا آنفا ، فيذكر الانسان ربه في صلواته؛ من تسبيح، وتحميد، وتسميع، وقراءة فاتحة، وتشهد وما إلى ذلك ، وهناك أذكار في طرفي النهار ،وأذكار للنوم، واليقظة، وللطعام والشراب ابتداءا وانتهاء ،وللمسجد دخولًا وخروجًا ،وللخلاء دخولًا وخروجًا ،لا يكاد شيء من أمور الحياة إلا ويتعلق به ذكر، فينبغي للموفَّق أن يحفظ الأذكار المتعلقة بكل حال وزمان ومكان ،

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

حتى يكون قلبه موصولًا بالله عز وجل دومًا.

قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا)[سورة الإنسان:٢٥-٢٦]: في هذا أمر بقيام الليل إلا أنَّ هذه الآيه قد قيَّدتها آية المزمل وهي قول الله عز وجل: ((إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل: ٢٠]، فجعله الله على سبيل الاستحباب، مع بقاء فرضيتها في حقه صلى الله عليه وسلم قوله: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا(٤))[سورة المزمل:١-٤]. والإطلاق والتقييد، والعموم والتخصيص معلومة في النصوص يعرفها العلماء.

ولم يزل قيام الليل شعار الصالحين ،يناجون ربهم ،ويتملقونه، ويدعونه، ويخلون به، فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يجعل له حظًا من هذا الشعار، وألا يكون كمن وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله في وصف مقزز: (إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ كلَّ جعْظَرِيٍّ جوّاظٍ ، سَخّابٍ في الأسواقِ ، جِيفةٍ بالليلِ ، حِمارٍ بالنهارِ ، عالِمٍ بالدنْيا ، جاهِلٍ بالآخِرَةِ)[٣]، وقال الامام أحمد قال عمن يترك الوتر، قال :"هو

(٣)أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بهذا اللفظ رقم (٢٠٨٠٤)، وأخرجه أحمد بمعنى متقارب رقم (١٢٤٧٦)، وإسناده على شرط البخاري ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه الحاكم بمعناه رقم (٢٠٢)، وقال الحاكم والذهبي: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة. قوله: (وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا): إن في الدنيا مجالًا طويلًا لعبادة الله ، وقال في سورة المزمل: (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)[سورة المزمل:٧]، في الوقت بركة ، وسعة لمن وفقه الله تعالى. كثير من الناس يقول: لا أدري كيف يمضي اليوم والليلة ، لا أدري كيف تأتي الجمعة بعد الجمعة، البركة منزوعة، الواقع أن اليوم والليلة منذ خلق الله السماوات والأرض أربع وعشرون ساعة لكل الناس؛ لكن من الناس من يغتنمها، ويبارك له فيها ،ومن الناس من يستغرق في الغفلات فتذهب عليه سبهللًا لا يدري كيف تمر! ولا ينجز شيئًا.

قال تعالى: (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)[سورة الإنسان:٢٧]: بيّن الله سبحانه وتعالى السبب الذي يحول بين هؤلاء المكذبين المعاندين وسلوك طريق الحق وهو حبهم العاجلة أي : الدنيا ، فهم متعلقون بزخرفها وملذاتها وشهواتها.

قوله: (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا) يعني: ينسون ويهملون يوم القيامة، والواقع أن ذلك اليوم أمامهم ؛ لكن لما صاروا غافلين عنه ، متناسين له ؛ جعلوه وراءهم؛ لأن الذي يجعل الشيء ورائه لا يهتم به ، ولا يكترث به، ولا يلتفت إليه، ولذلك عبّر بقوله: (وَرَاءَهُمْ) فقد اتخذوه ظهريًّا، قال الله تعالى: (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩))[سورة الإسراء:١٨-١٩].

قال تعالى : (نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا(٢٨)) [سورة الإنسان:٢٨]: هذا تذكير بأصل الخلقه التي نبّه عليها في أول السورة ، (وشددنا أسرهم) خلق شديد الخلقة، قال المفسرون: شددنا خلقهم ومفاصلهم وأعضاءهم، فوهو خلق متين، والعارفون بعلم وظائف الأعضاء يدركون دقة خلق الإنسان ، كيف ركب الله تعالى هذه العظام ، وكيف شدها بالأربطة وثبت فيها العضلات بالأوتار التي تشد خلق الانسان حتى يصبح خلقًا متماسكًا.

إن الصناعات التي يصنعها ابن آدم كالسيارة التي تصنع من حديد لا يمضي عليها أشهر وسنيات حتى تتناثر ،وتحتاج إلى صيانة، وابن ادم ربما يعيش مئة سنة صحيحًا تجري في بدنه عمليات حيوية بانتظام ، صحيح أنه يضعف وهذه سنة الله ، ويدب فيه الهرم ؛ لكن عشرات العمليات تجري في لحظة واحدة في بدنه في جهازه العصبي وجهازه الهضمي ، وجهازه التنفسي.

قال: (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً)، قيل إن (إذا) هنا بمنزلة (إن)، وأنَّ ذلك لم يقع ، لكنه نوع من التهديد، كقول الله تعالى :(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) فيكون هذا من باب التهديد لهم، بمعنى نأتي بخلقٍ سواكم.

المعنى الثاني :أننا نفنيكم ثم نُنشؤكم نشأة أخرى ، وهو البعث ، وأن المقصود بقوله :(أمثالكم) يعني: أنتم أنفسكم؛ حيث يُعاد تركيبكم، فتكون هذه النسخة المُعادة مثيلةٌ للنُسخة الأولى.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فيكون دليلًا على البعث، وهذا تذكيرٌ بالمبدأ واستدلال به على المعاد وهو أليق بالمقام.

قوله: (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ) يعني ما جاء في هذه السورة من المواعظ البليغة ، والتشويق ، والتخويف تذكرة ؛لأنها، وتجلو الغشاوة عن الأعين، والوَقر عن الآذان، و الأكنة عن القلوب.

قال تعالى : (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا(٢٩)) [سورة الإنسان:٢٩]: المعنى: أنتم أمام مسؤوليتكم أعطاكم الله مشيئةً حقيقية بها تأتون وبها تذرون، لستم مُسيرين، ولستم مَقهورين، ولستم مجبورين، عندكم إرادة ومشيئة بها تأتون، وبها تذرون، وعليها يترتب الثواب والعقاب.

وسبيل الله: لزوم طاعته وإجتناب مَعصيته.

قوله: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) هذه الآية والتي قبلها قانون الشرع والقدر، حتى لا يُطَوحَ الإنسان كما طَوحت المُعتزلة القدرية فزعموا أن للعبد مشيئةٌ مستقلةٌ عن مشيئة الله، والعبد يخلق فعل نفسه. فبيَّن الله أن مشيئة العباد لاتخرج عن مشيئته ؛ لأن مقتضى الربوبية نفوذ مشيئته، فمشيئة العباد داخلة تحت مشيئة رب العباد ولا تَعارض بين الأمرين؛ لأن المكلف حينما يأتي شيئاً ،أو يَذر شيئاً يفعله بسبق إصرار ،ومحض اختيار ، ولا يرى أنه مجبور على فعله، ولا يعلم ما قضى الله عليه في الأزل، فلا حجة له على الله بذلك، والذي سيقع منه هو الذي قد قدره الله في الأزل قطعاً.

له العلم المُطلق بما كان، وما يكون ، وما سوف يكون، وما لم يَكُن كيف لو

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

كان يكون.

قوله: (حَكِيمًا) أي : حكيماً في قَدَره ، و حكيماً في شَرعه ، وفي حُكمه، فهو حكيمٌ في قدره. (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيد) ولا يفعل شيئاً عبثاً ولهواً ولعباً، بل لحكمة وغاية، خِلافاً لنفاة الحكمة و التعليل، وهو حكيم في شرعه، لا يشرع إلا ما فيه مصلحة محضة أو راجحة وهو حكيمٌ في حكمه فلا يظلم مثقال ذرة في مُجازاة الناس.

قوله: (يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أي : في جنته.

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) نصَبَ الظالمين بفعلٌ مُقدر يُفهمُ من ما بعده يعني وأعد للظالمين عذاباً أليما، وهو النار.

الفوائد المُستنبطة:

الفائدة السادسة والثلاثون: إثبات تنزيل القرآن.

الفائدة السابعة والثلاثون: إثبات علو الله بذاته فوق مخلوقاته.

الفائدة الثامنة والثلاثون: وجوب الصبر لحكم الله الكوني والشرعي.

الفائدة التاسعة والثلاثون: الحذر من طاعة الآثم والكفور.

الفائدة الأربعون: فضيلة ذكر الله تعالى طَرَفي.

الفائدة الحادية والأربعون: فضيلة طول القيام والتهجد.

الفائدة الثانية والأربعون: أثر الذكر والقيام في الصبر على طاعة الله والاستقامة.

الفائدة الثالثة والأربعون: أن حب الدنيا والغفلة عن الآخرة سبب للفسوق و العصيان.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة الرابعة والأربعون: ثقل يوم القيامة على الكافرين.

الفائدة الخامسة والأربعون: كمال قدرة الله وقوته وإحاطته.

الفائدة السادسة والأربعون: الاستدلال بالبداءة على الرَجعة.

الفائدة السابعة والأربعون: حصول التذكرة في القرآن عامة وفي هذه السورة خاصة.

الفائدة الثامنة والأربعون: إثبات مشيئة العبد وفعله ودخولها تحت مشيئة الرب ومفعوله.

الفائدة التاسعة والأربعون: إثبات اسمي الله العليم والحكيم وما تضمناه من العلم والحكمة.

الفائدة الخمسون: أن دخول الجنة برحمته ودخول النار بعدله.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله